العربية مسؤولية كل انسان عربي في القرن الاخير في تفاعله مع الواقع الحضاري وكانت اعلانا عن تقصير الحضاره العربيه عن تقديم الاستجابة الصحيحة للتحدي الذي يواجهه . من هنا يمكن القول ان قضيه فلسطين هي المحك الذي سيقرر موت الحضاره العربيه او انبعاثها ، لان التحدي الصهيوني هو تحد حضاري في الدرجه الاولى، وان الاستجابه العربية ستقرر اذا كانت الحضارة العربية تحمل في احشائها طاقه على الاستمرار او ان شعلة الحياة انطفأت ولم تعد قابله للاشتعال .

وعي خليل حاوي هذه القضية وكانت اطارا ضم في داخله قصائده الاخيرة وكانت محورا انبثقت عنه وارتكزت اليه ، من قصيدة « الام الحزينة » (١٩٦٧) الى «ضباب وبروق» (١٩٧١) الى « الرعد الجريح » (١٩٧٣) الى « رسالة الغفران » (١٩٧٤) . وتعد هذه القصائد الاربع قصيده واحدة تنتظمها تجربة واحدة تطورت عبر السنوات الثماني وكانت ملحمة الانسان والحضارة . وساقصر هذه الدراسة على تحليل القصائد الثلاث الاولى منها . وستكون لنا عودة الى القصيدة الرابعه .

كانت التجربة التي عاشها حاوي في قصيدته « الام الحزينة » التي كتبها بعد هزيمة العرب في حزيران هي ذاتها التجربة التي عبرت عنها قصيدة « لعازر ١٩٦٢ ». من هنا كانت قصيدة قصيره جاءت لتؤكد صدق الرؤيا الموجعة ومطابقتها للواقع المؤلم. ويلاحظ دارس القصيدة ان المأساة فيها ليست مأساة البطل بل مأساة الام التي هي الارض والحضارة . وكان الشاعر استعار عنوان قصيدته من التراث المسيحي حيث كانت العذراء مريم ام المسيح هي الشخصية المأساوية التي عانت بموت ابنها موت جزء من ذاتها دون ان تعرف يقينا انه سيبعث . ولم يعان المسيح مأساة الموت لان موته لم يكن سوى سبيل لانبعاث يقيني هو الحياة الابدية . اما في القصيدة فان الام تعاني المأساة لان جذوة الحياة لم تنطفىء في اعماقها وهي تعيش موتا بطيئا مستمرا بموت كل عضو من اعضائها على حدة . وهي ام حقيقية عريقة واصيلة الامر الذي يزيد من مأساة انهيارها وموتها . اما البطل فهو غير موجود : انه ميت منذ مطلع القصيدة . وبانتفاء وجود البطل انتفت المأساة من حيث هي ملحمة بطولة وسيادت حالة ركود وموت مطلق . لذلك لم يكن هناك مسيح واحد فاد ، بل « الف مسيح ومسيح» ماتوا في اجواء قاحلة مظلمة تؤكد موتا ابديا لا يتلوه انبعاث . فكان كل واحد منهم مسيحا ليس في كونه ميتا منبعثا بل في عدم كونه بطلا مأساويا . وكانت هذه القصيدة في بنائها موازية لبناء قصيدة « لعازر » اذ لم يكن لعازر بطلا مأساويا بل ميتا يشتهي موته ويرفض ان يتخطاه . وكانت زوجه شخصية مأساوية لانها تعي الحياة وتكره ان تنجر الى حفرة زوجها ، لكن قوى داخلية وخارجية تعمل مجتمعة على جرها نحو الحفرة دون ان تقوى على مقاومة كبيرة لانها هي ايضا تعاني شيخوخة وعجزا ومرضا .

تبدأ القصيدة بصورة مرعبة خانقة يتحول فيها الله ، العلة الاولى ، صخراء مجدبة قاحلة تعجز عن الخلق والعطاء . وينقطع الكون انقطاعا تاما عن مبدعه فترفع العناية ويقف الانسان وحيدا في كون تخلى عنه خالقه لانه فقد قدرته على الابداع والخلق . وتكون المأساة الاساسية في القصيدة هي مأساة موت الله . واذا كانت هذه المأساة هي احدى المبادىء التي قامت عليها بعض المذاهب الفلسفية في العصر الحديث ، فانها اتخذت طابعا مغايرا واكثر حدة في هذه القصيدة . فاذا كان نيتشه الذي طرح هذا المبدأ يؤمن بان الانسان يستطيع ان يتخطى ذاته ويتفوق عليها وان يحل محل الاله الميت فان حاوي يعلن في هذه القصيدة موت الانسان ايضا وسيطرة عنصر الشر سيطرة تكاد تكون مطلقة . من هنا كانت مأساة حاوي اكثر حدة ومرارة من مأساة